قصة

قصة « سجل ! »

— ١ —

يسر المقتطف أن تقدم الى قرائها هذه التحفة الادبية الخالصة. وهي قصة من قلم الدكتور بشر فارس صاحب مسرحية « مفرق الطريق » . وهذه القصة من مجموعة قصص تخرج بعد أيام قلائل في مجلد بعنوان « سوء تفاهم » (مطبعة المعارف ومكتبتها) ، وقد رغبنا الى المؤلف ان يخص المقتطف بباكورة من المجموعة

وهذه القصة وأخواتها قد تحير القارىء أحياناً كما حيرته « مفرق الطريق » وذلك لطرافة الموضوعات وجدة المعالجة . ولهذا يحسن بنا أن ننقل الى القراء زبدة حديث سمح به المؤلف الى زميلتنا « للكشوف » البيروتية (العدد ٣٣٢—٢٤ أكتوبر ١٩٤١) قال الدكتور بشر فيما قال :

« القصة عندي حبة تنتزع من صدر الحياة لا قطعة من الحياة كما يرى القصاصون غالباً . يجب ان تكون كبرق يلتوي في سماء مغبرة . السماء المغبرة هي الحياة الجياشة ، وهي مظلمة من حيث دقائقها ومن حيث أسرارها . فالقصاص هو الذي يستطيع ان يطلع في لمحة على سر من هذه الاسرار او دقيقة من هذه الدقائق ليدونها . ويجب أن تنطوي القصة على شاعرية في الاداء القصصي وفي التصوير على الخصوص ، وعلى عمق في تحسس الملابسات النفسانية معالجة بسيطة جداً قائمة على حادث تافه ، على كلمة عابرة ، على شعور يختلج ، مع اجتناب التحليل المنطقي او العلمي . ولا أكتمك ان طائفة من الكتاب الانجليز الذين تخرجنا عليهم وحاولنا النسج على منوال قصصهم أضروا بنا كثيراً من حيث توجيهنا للتحليل . . . (يريد صاحب الحديث القصاصين الفرنسيين)

« ومدار الانشاء الرفيع ان يجعل المنشىء القارىء يشاطره فنه ، ولن يشاطره إلا اذا مر بالتجربة التي مر بها المنشىء ولم يستطع ان يفصح عنها . واما اذا أفصح المنشىء عن التجربة فقد قبض عليها القارىء وتفهمها وتذوقها . وهذه هي غاية القارىء التي تحب غاية المنشىء »

وهنا زاد كاتب الحديث : « وصارحني الدكتور بشر انه لا يكتب لمن يريد ان يقرأ في سبيل المتعة العابرة ، او ساعة يمضيه التعس ، انما يكتب لمن يجب ان يشاركه فنه ولا يخشى ان يعمق فكره . . . القصة ليست قصصية ، يجب ان تثير القارىء » . وهو يرى ان القصة لا تحتاج الى عقدة ، بل يجب أن تكون كالرسم الحديث . . . يجب ان تكون القصة حبات في لوح الحياة الجارية . ولا كان على القصصي ان يكون انساناً قبل كل شيء فمن حقه ان يعطف على البشرية المتألمة وان يسترسل مع صيوب المدنية ، كل ذلك في دوران أدبي فني . . . ويستطيع المنشىء ان ينصرف في بطن القصة الى التأمل ، على ان يكون تأمله طريفاً . وهو يستطيع ان يعطي ما يشاء على ان يكون مختصراً

ذلك محل رأي الدكتور بشر صاحب الشخصيتين إذ هو أديب متصرف الى الادب الخالص وعلما منقطع الى العلم المحض . وهو يخرج لنا اليوم مجموعة روائع لا نشك في أنها ستحدث ما تحدث على نمط ما سبقها من تآليف هذا الكاتب القوي

وقد سألنا صديقنا الدكتور بشر : ما وراء عنوان قصتك ؟ فتحكرنا بجملة وردت في « مفرق الطريق » على لسان « هو » يقولها البطلة « سميرة » والجملة : « علمتني اليوم ان الحياة مجموعة سوء تفاهم »

[المحرر]

— ٢ —

لماذا يحاول الانسان دائماً ان يستوضح الغامض ويهتك أستار المجهول ؟

ولماذا ، وقد تطاول في محاولته على طرق أبواب ما وراء الطبيعة ثم باء بالفشل ، يعاود محاولته من جديد ؟ ؟

ولماذا يفشل ؟ ؟ وهل هناك علاقة بين فشله وبين العناصر التي ركبتها الطبيعة فيه ، وهي وسائله في محاولته وجهاده ؟ ؟

بعض من أسئلة تثيرها هذه القصة الطريفة للقصة ، ولا نبخل عليها بجواب ! !

استكناه الغامض والمجهول مما يحيط بنا ، ثم فشلنا في تحقيق ذلك اذا نذف بنا الطموح الى استجلاء ما هو خارج عن محيطنا الارضي وطائق بالسماء ، هذا المحور الذي تدور عليه هذه القصة ، كما دارت عليه ، ومن غير نهاية ، روائع من الشعر والمسرحيات والقصص ، منذ ان اتخذ الذهن الانساني الادب وسيلة للتعبير عما يختلج بالنفس ويستبد بالخاطر ، وهما من مباعث للأسى الذهنية التي أنشأت الطروس منها نفائس الادب وطرائف الاتجاهات الفلسفية

خلق الانسان ، ما أعجبه !!

طموح لا يتطامن ، وتطلع لا يهدأ الى المعرفة ، وتوثب لا ينبو عن إجابة نداء الغامض المجهول ، ثم قصور في عناصر الذهن وروابط التفكير وهن في أعضاء الجسم وعجز في الوسائل : قيضان عجيبان ، بل ضرتان تبدأ في نزاع ، فكأنما قضي على الانسان ان تبقى قدماه راسختين في الارض ورأسه مشرئباً الى السماء لي تتوقف . هو يريد التحليق ولا يستطيعه ، ويهم بهتك الحجب ولا يدركه ، فاذا دمه طموحه الى التحليق والخروج عن محيطه الارضي فالجاذبية والعذاب له بالمرصاد ، وحيثما ما ركب فيه ، وعذابه مما جبلت عليه نفسه : للذلة يقتله بشر ، وللتعاظم الشيطاني تنشك به ذبابة أو تزل به قدم فيروى !

عقدة العقد وأحجية الاحاجي . . .

صاغ منها (بشر فارس) قصة ، وأية قصة ، جرى فيها قلمه مبتدعاً لا متبعاً ، وفي سياقة محكمة وأسلوب مترع بالنعمات الفنية والاشراقات الذهنية ، فياض بالطبع القوي للنفس

وإن القصة لتنتهي ، وإن الكتاب ليطوى ، وتبقى العقدة قائمة من غير حل ، تراود خاطر وقد تستبد به وتدعه الى متاهات لا حد لها

زكي طليمات

رجل !

في زاوية من زوايا الارض جبل طال طول تمني الفقير وسأم الغني. جبل اشتد اشتداد شهر الصوم على المتكلفين ، والناس يحذقون التكلف لان الفطرة سلامة

جبل هبّ أملس ضامراً جرداً : رمح ركزه ربٌّ أعياه خلق لا يتزجرون

كان الجبل سيد اهل الزاوية : يستقبل أعينهم كل صباح فيحدّ من مرماها ، ويعكس عليهم شعاع الشمس فيشترك في اللفح ، ويصد عنهم الزعازع فيهدىء ليلهم : مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

كان اهل الزاوية لا يرفعون الابصار الى الجبل إلاّ وأكفهم مفروشة فوق حواجبهم . وان تحيراً الطرف واقشعر ، فعلى سبيل اللمح : كان الجبل يمزق عزم العين. ولولا هذا الجبل الأملس الضامر المجرد ما كان اهل الزاوية على تلك الحال من الدعة والرقة . . . لا بدّ للناس من شيء يهددهم بالسحق ، من شيء متماسك مع تطاول حتى تلين انفسهم

كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

وكان الشغل الأكال للأذهان : على رأس الجبل بيت منقور ، فقره شيء مجشّع هوى من ناحية السماء ثم زرع فيه عشباً أبيض قصير الورق ، من أكل منهُ وهو ندٍ في منبته ظفر بالحياة الابدية ... السماء تستهوي الخلق ابداً ، وتارة تغويهم ، السماء جزء من الكون ، والكون بهرج

والطريق الى ذلك البيت المنقور وعر ، معضل . والتصعيد فيه خدعة من خدع الموت . ولم يقوَ على بلوغ البيت من اهل الزاوية سوى اثنين . وقد عاد احدهما كسيحاً من الاعياء ... هل يقدر رجل على حمل الابدية ؟ وعاد الآخر مكفوفاً ... آه من الشمس تقتل من حيث تحيي : وهجها ينير ويعمي : أضاءت البيت المنقور أي إضاءة حتى إنها أطفأت العين

عاد الكسيح والمكفوف وبين أيديهما الابد . ولم يدرِ أحد من أهل الزاوية أيسخران من الموت ام الموت يسخر بهما

* * *

— « يا رجل لا تصعّد في الجبل »

— « أنا مصعّد فيه ياقوم »

— «أتبغي الأبدية وأنت بشر ؟ أتخرج على سنة الكون ؟ كل ما فيه مقدَّر: الجفاف يترقب النبات ، والليل راصد الشمس ، والموت يحصي على الانسان أنفاسه»

— « الكون مبذول لنا ، ولسنا عبدة عين الى الكون يعبث بنا ويتحكم في أمرنا . الكون مبذول لنا ، فليسخِّر لنا قيوده للعبيد ، لمن يطرّح النظر الى فوق وكفُّه مبسوطة فوق حاجبه . هذا الجبل يكسر طرقي ، وأنا أريد ان أحدّق اليه وأقول له : الآن لا أسارقك النظر ، ولا أخشى لمسك وخطفك ، لأن سرك انتقل اليَّ . أنت تطويه في رأسك وأنا في عروق أبثه ؛ أنا أفضلك وأبهرك ، لأنك صاحب السر ، وأما أنا فمختلسه . أنت قبضت على المستحيل وهوّلتَ به علينا ، وأنا أجعله برجولتي ممكناً »

«ولكن الكسيح والمكفوف ، ألا تتعظ بهما ؟ »

« انهما رغبا في الأبدية طمعاً فيها وحدَها . وأما أنا فأطلبها لتنقاد ، لاحسَّ بأني ظافر . هما رغبا فيها للتنعم بالحياة الباقية ، وأنا أطلبها لأصرعها ... كالمرأة تستمتعون بها وتلهَون ، وأما أنا فأطرحها تحت همتي لأشعر بأني أملك شيئاً نابضاً ، شيئاً استطيع ان أنشر فيه من ارادتي وأسلّ منهُ ارادته عوضاً . وإني لا أحسّ برجولتي إلاّ إذا وجدتُني السلطان القادر على حياة غيري . حياتي لا أملكها لأني عبد لها تسيّرني ولا اجرؤ على الانتقام منها ... لا يقتل نفسه الاّ من افتقد حياته فانفلت من ضغطها ، ولست كذلك ، حياتي بين يديّ ولكنهما لا تسمانها »

تمهّل الرجل ليتصفح القوم ثم واصل : « أنا مصعّد في الجبل لأغتصب عمري من براثن العدم . فأعود سيد نفسي : إذا ضايقتني أديتها ، سيد جسمي: أفنيه متى شاء ، سيد روحي أميلها على هواي . . . الروح التي حرتم في شأنها سأقبض على أطرافها وأجعل لها من عظامي إطاراً يخنقها . أنا مصعّد »

قال الرجل مقاله ، فضحك الكسيح وبكى المكفوف من خلفه ، كأن أحدهما يتمّم اخاه . ثم حمل المكفوف الكسيح وأخذا يتحسسان — هذا بعينه وذاك بقدمه — نعيم الفناء : الارض وما عليها

عاد الرجل الى مقاله : « أنا مصعّد ، وسألقي اليكم كل يوم بحجر لأعلمكم

بأني سالم ، حتى ارجع اليكم فتلتفّوا حولي وتسألوني أن أفتك بهذا الكسيح وبهذا المكفوف لانهما طالما ما فتّهما خطره . أنا مصمّد . »

هدأ الرجل . ومن بين الصفوف برزت فتاة وقالت : « لا تذهب الى البيت المنقور »

أخذت الرجل نحة وهو يقول : « ياحبيبتي . . . »

تطلعت الفتاة اليه قلقة البصر حيرى السمع . فأكّد الرجل : « نعم ، حبيبتي . الآن فقط أناديك : ياحبيبتي . ومن قبل كتمتُ مايشغل صدري ، لاني لو نشرتحبي بين يديك لتعطّل إحساسُك الدفين به »

ثبت القلق في البصر وامتدت الحيرة في السمع . فزاد الرجل : « الروضة التي عن يمينك تجلسين اليها تنقلين البصر ، فينزود ، فينساب سحر مستتر تحت الجفنين فيغليهما ويطبقهما ، ثم تقبل صاحبة من مواجيك فتصيح : ما أجمل الروضة ! فينزعج السحر ، وينفر من تحت الجفنين ، فينفرجان ، فترى عينك ماترآه عين صاحبتك: تلمس حواسُّك الاشياء ، فتصحو ، فتبطل الخلوة بالوهم الخاطر .. الحب والجمال كالبريق الذي في الياقوت الاصفر الرقيق : ماء مستفيض في تعاريج الجوهرة ، فوق الوصف ودون اللمس . . . الحب والجمال وماء الجواهر لا تفعل فعلها الاّ إذا رقّت وراء حجاب شفاف . . . يا حبيبتي »

دنا الرجل من الفتاة التي برزت من بين الصفوف ، فارفض القوم . فقالت الفتاة : « لاتذهب الى البيت المنقور »

ضمها الرجل اليه : «اليوم أناديك : يا حبيبتي ، لأني منصرف عنك . لحظة يتشرم اللحم من اللحم يحسن بالالفاظ ان تنفح دماً . وهل يضور بالدم غير الالفاظ المقدسة ؟»

فك الرجل الفتاة من الضمة : «وما أحراني الآن بأن أناديك : ياحبيبتي . . . اني بباب المعبد . سأدخله في الوقت الذي اختاره ، سأدخل معبد الزمن المنزّه عن خطر الانفعال ، فاختطف من دعائمه حقيقة حرفين متلاحمين : الحاء والباء ، لان الحب نَفَس متصل . اليوم لي الحق ان ألفظ الحرفين لاني قريب الاتحاد بالقوة الراسخة . . . آه يضحكني البشر متى يخرجوا حروفاً وضعت لغير حلقهم . البشر ذو الزوال ، والحب حابس العابر في المقيم . حابس الزمن الدائر في دفة قلب . »

قالت الفتاة التي برزت من بين الصفوف : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

فتدفق الرجل : «أتخشين ان تشغلني الابدية عنك ؟ لا أهواها ولا اشتهيها، إنما أريد أن أذلها . أنت تغارين منها لانك تحسين ما تكون هبتها لي . ستهب لي سرّها ، ، ويشق عليك ان ينافس سرّك الذائع في صدري سرٌّ داخل . ثم تحسين أن الابدية شيء يعاتلك ، شيء يمنح السعادة . »

ثم جعل الرجل يقطّر كلامه : « لاتغاري يا حبيبتي. سأجعل الابدية سلماً اليك . فأجلس إزاءك نداً الى ندّ : انت امرأة تبسط الدنيا لحبيبها فيبع الأشياء كلها ولا يسعهُ شيء ، وأنا رجل قد نزع قدمه من ورطة الأرض ... كفّي عن منعي »

همهمت الفتاة . « ياحبيبي ، لا تذهب الى البيت المنقور . »

***

وذات يوم لم يسقط حجر . فتدّد القوم بالرجل ثم سبوه . . . لِمَ يحاول الفوق عليهم ثم يكبو ؟

وفي الليل حلم الكفوف انهُ رسّام والكسيح انهُ رقّاص... الشماتة فتّانة ! ثم مرضت فتاة

وذات صباح هبط الرجل على القوم سالماً. فالتف القوم حوله :

— « أنت ؟ حيّ ؟ هل أكلت من العشب ! »

— « عني الطريق »

— « ولمَ امسكت عن القاء الحجر ؟ »

— « إلى من ألقي بالحجر ؟ لا ترقبوا الشيء من عل ، تثبّتوا في جوف الارض ، يا بشر ! عني ! الطريق ! »

دخل الرجل بيت الفتاة التي برزت من بين الصفوف ثم مرضت

والفتاة لم تكن في البيت : قتلها الحجر الذي لم يسقط

خرج الرجل الى الجبل ، وصعّد فيه يقعد الى البيت المنقور يحاسبه

ولما كان ذات صباح سقط الرجل من الجبل ميتاً ... قتل الرب نفسه ، والذي قتلهُ بَشَر